منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

معجزات الجسد في القرآن

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

د. علي العريبي

أستاذ محاضر بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس

مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : معجزات الجسد في القرآن

المؤلف : د. علي العريبي

رقم الإيداع : ٩٧٥١

الطبعة الأولى ٢٠١٢م

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ١ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٤٠١٠٦ ـ ٢٧٨٧٢٥٢٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

تمهيد

أنزل القرآن لهداية الناس إلى الطريق الأقوم، وليتذكروا أن لهم ربا خلقهم في أحسن صورة، ورزقهم القوت، وأسبغ عليهم نعمه التي لا تحصى ولا تعد، وهيأ لهم هذه الأرض يعيشون فيها ويمشون في مناكبها، وكل ما خلق الله وما أنبت، هو لفائدة الإنسان ثم الحيوان، وحتى الحيوان، وجد لخدمة الإنسان ومنفعته، باختصار فالإنسان هو خليفة الله في أرضه، أكاد أقول خلق هذا العالم من أجل أن يعيش الإنسان في أمن وسلام، ولكي يعيش كذلك، طلب منه أن يستخدم عقله وجسمه، ليتمتع بما حوله في هذا الكون، ويسخره لفائدته، بواسطة هذا الجسم الذي أعد بمهارة وحكمة، فكل عضو فيه وجد ليقوم بدور معين، يجعل الإنسان متصلا بهذا الكون اتصالا وثيقا، كالسمع والبصر واليدين والرجلين واللمس والذوق، وإمام هذه الأعضاء وغيرها العقل، ونائبه اللسان، ولكي يقوم بكل هذه الأدوار على أحسن ما يرام خلق له أعضاء داخلية هدفها مواصلة الحياة، فهي تستقبل الطعام والماء، فتحوله إلى دم، به تستمر حركة القلب ونبضه، وبه تستمر الحياة.

هذا الجسم عالم متسع الأرجاء، فكل ما فيه يدل على عظمة خالقه، فيه أعضاء متنوعة، ومختلفة الأدوار، كل عضو يقوم بوظيفته بإتقان وحكمة بالغة، وللعضو الواحد إدارة خاصة، ينشط فيها عمله وموظفون، حتى يقوم هذا العضو بمهمته على أحسن الوجوه، فالقلب واليدان والأذن والعين لها جنودها وموظفوها، كل يقوم بدوره، لا يشاركه فيه أحد، وإذا تخلف أحد الجنود أصيب العضو بالاختلال والنقص، ويسري هذا الاختلال على بقية أعضاء الجسم، بمعنى « إذا اشتكى منه - أي الجسد - عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » كما قال الرسول في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم. وهنا يكون العلاج، وتدخل الطبيب ضرورة

وواجب، ولكل عضو في الجسم تخصص، بل أكثر من تخصص، فهذا طبيب للعيون، والآخر للأذن والحنجرة والأنف، وهذا للقلب والمعدة، وهذا متخصص في أمراض النساء أو الأطفال ...إلخ.

وقد ذكر الكثير من هذه الأعضاء في القرآن، وبما أنه كتاب هداية وإرشاد، فلم يتعرض إلى وظائفها ودورها، كما تتعرض لها العلوم الطبيعية، ما عدا بعض الأعضاء التي تتحمل نصيبا كبيرا في القيام بالأعمال الدنيوية والأخروية، ومن أجلها يتعرض بقية الجسم للعقاب، أو يسلم من أن يصاب بأذى يوم القيامة، وهذه الأعضاء القيادية في الجسم هي القلب والنفس واللسان كما سنرى، وحتى اليد والرجلان لهما دور بارز في جسم الإنسان من حيث الثواب والعقاب، فالرجلان يحملان الجسم إلى مكان ما، واليد هي التي تقوم بالفعل، ويوصف هذا الفعل بالخير أو بالشر في القرآن، وحتى في بعض القوانين الوضعية.

ويمكن للباحث في كتاب الله أن يرصد مسائل مهمة تتعرض إلى خلق الإنسان الأول، وقد كان من تراب أولا، ثم أصبح عن طريق التناسل بعد ذلك، فيكون الجنين في الرحم، ثم يخرج من بطن أمه، فيكون طفلا ثم شابا وكهلا، وأخيرا يكون شيخا، وقد يموت أو ﴿مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1].

وقبل أن نعرج إلى جسم الإنسان من خلال القرآن الكريم، نتعرض إلى مسألة هامة وقضية شائكة، فأما المسألة الهامة فتتعلق بتهيئة هذه الأرض بوصفها الإطار الذي يعيش فيه الإنسان معززا مكرما، وأما القضية الشائكة فتهم خلق الإنسان نفسه، هذا الكائن الذي حارت البرية فيه، وفي كيفية خلقه ومنشئه.

الأرض ملك للإنسان

نقرأ في سورة الرحمن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[2] أي أنه خلقها

(١) الحج: ٥.
(٢) الرحمن: ١٠.

قصدا لتكون موطنا وسكنا للناس، وتكون ملكا لهم في حياتهم الدنيا، والملك كله لله، على ظهرها يبنون مساكنهم، وعليها يقومون بالفلاحة والزراعة، وقد يبيعون أو يشترون ما يملكون من هذه الأرض، ويتوسعون فيها ببناء المدن، وإقامة أماكن للعبادة وغيرها، وبما أن الأرض كروية الشكل لا يستطيع الإنسان أن يتحرك فيها، لو بقيت على حالها، فقد جعلها الله صالحة للتنقل والإقامة ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [1].

فقد مهد الله هذه الأرض بأن جعلها منبسطة، يسهل العيش فيها، ويمكن للإنسان أن يتحرك في جوانبها وطرقها في السهل والجبل والصحراء والغابة بفضل خالقها ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [2] فهي بمثابة المهد الذي يجد فيه الطفل الصغير راحته، وهي كالبساط ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [3] لسهولة التنقل عليها، فأصبحت مريحة تسهل المعيشة عليها ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [4] وهكذا جعل الله من هذه الأرض مستقرا وقرارا يطيب فيه العيش، وإن إلى حين، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [5] وقال أيضا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [6].

وبعد أن سهل لهم العيش فوق هذه الأرض، وخلق لهم الهواء الذي بدونه لا يحيا الإنسان، وأوجد لهم الليل والنهار أحدهما للراحة والسكون، والآخر للعمل والحركة والماء الذي جعل منه كل شيء حي، فكانت الثمار والفواكه وغيرها

(١) الملك: ١٥.
(٢) طه: ٥٣.
(٣) نوح ٧.
(٤) الذاريات: ٤٨.
(٥) البقرة: ٣٦.
(٦) غافر: ٦٤.

مما أبدع الله وصور، دعاهم إلى الإقبال على خيراته، وأخذ نصيبهم منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ (١).

وحتى السماء سخر الله ما فيها من منافع للإنسان، فمنها ينزل الغيث، الذي لا تستقيم الحياة بدونه، وفيها الكواكب والقمر والشمس، ولتتصور غياب الشمس عن كوكبنا الأرضي، فماذا يحدث يا ترى ؟ لا شك أنها تتحول إلى كتلة ثلجية تنعدم فيها الحياة، وينعدم فيها وجود للإنسان والحيوان والنبات، وللسماء مآرب أخرى، ففيها اكتشفت أمواج هوائية تساعد على وسائل الاتصال، وتقرب بين الشعوب مثل الإذاعة والتلفزة والهاتف، القار منه والمحمول، وغيرها.

نعم لقد خلق الله ما في هذا الكون لفائدة الإنسان ولمصلحته، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٢) وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (٣).

لقد مكن الله الإنسان في الأرض، وجعل له فيها معايش من طعام وشراب، ليشكر الله على نعمه، ولكن الإنسان، مع الأسف، يجازي ربه بالجحود والكران، فقليل هم الشاكرون الحامدون، وكثيرا ما يتجاوزون الجحود إلى الفساد في الأرض، فيقتلون النفس التي حرم الله التعدي عليها إلا بالحق، ويشعلون الحروب، ويفتكون بالأبرياء، ويدمرون الحرث والزرع، خلافا لما أمر به الله ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٤) أو قوله تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ (٥) وكان يمكن أن يعيش الناس أخوة متحابين، فخالقهم واحد،

(١) البقرة: ١٦٨.
(٢) البقرة: ٢٩.
(٣) الجاثية: ١٣.
(٤) الأعراف: ٧٤.
(٥) الأعراف: ٥٦.

ومصيرهم واحد، وهو الموت في آخر الأمر، وقد سخر لهم خيرات الأرض وكنوزها، لا فرق بين مؤمنهم وكافرهم، ولكن قوى الشر، أو ما يسمى في القرآن بالشيطان يغر الإنسان، فيدفعه إلى ارتكاب المحرمات، ومنها الاستعلاء على أخيه الإنسان، والاعتداء عليه إلى درجة القتل، ولو قاوم الإنسان نوازع الشر المغروسة في نفسه الأمارة بالسوء، وغلب نوازع الخير، لاستقام حال الإنسان، وعاش مع أخيه الإنسان في وئام و انسجام، ولكن الأنانية وحب الجاه، وإرادة التحكم والاستحواذ على المال والانفراد بمتع الحياة ولذاتها هي التي تعمي الناس، وما أعماهم في الواقع إلا الشيطان الذي ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[1].

بل إن الشيطان يوسوس للعلماء من الناس بتغيير خلق الله، وذلك بتحويل الرجل إلى امرأة، وإفساد الفطرة السليمة، كظاهرة الاستنساخ التي يدعي أصحابها أنهم يستنسخون بشرا بالاعتماد على خلية واحدة، أي التكاثر بدون إخصاب، ويكون هذا المستنسخ متشابها مع أصل الخلية الأولى إلى أبعد حد، ولكن إن جاز الاستنساخ في عالم الحيوان فإنه لا يجوز بتاتا من الوجهة الدينية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية، ولكن ما دام الشيطان هو سيد الموقف فلم لا يأمرهم بتغيير خلق الله، ألم يعلن منذ البداية أمام الحضرة الإلهية قائلا: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[2].

وليس من غايتنا أن نتحدث أكثر في هذا الموضوع الذي مازال في طور الافتراض والبحث، وإنما نريد أن نتعرض إلى خلق الله للإنسان الأول فوق كوكبنا.

خلق الإنسان الأول من طين

آدم هو الإنسان الأول على وجه الأرض، خلق من تراب، خلقه من يقول

(١) النساء: ١٢٤.

(٢) النساء: ١١٩.

للشيء كن فيكون، تراب أو طين أو صلصال، تحول إلى حمأ[1] مسنون[2] هكذا أراد الله أن يكون أصل الإنسان، عفونة وروائح كريهة تشمئز منها النفس، من هذا الطين الأسود المتعفن خلق الله الإنسان، فكون منه الأعضاء، وبث فيه الروح، أو نسمة الحياة، وأنشأ فيه المشاعر والأحاسيس على مختلف أنواعها، فهب واقفا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقد حدثنا القرآن عن كيفية خلق الإنسان الأول، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[3] وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[4] وقال أيضا ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[5] ومن عظمة الله وقدرته أنه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[6] من الصلصال، وهو الطين اليابس الذي له صلصلة: أي صوت يتردد، خلق الله الإنسان ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾[7]

وقال ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي، وقال عنه أنه حديث حسن صحيح « إن الله عز وجل، خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والطيب والخبيث ».

ولم ينفخ الله الروح في آدم فقط، ولم يبث مختلف المشاعر والأحاسيس فحسب، وإنما غرس فيه عقلا به يعقل الأشياء كلها، وسماه القرآن لبا، واللب من كل شيء خالصه وخياره، فإذا كان لب الجوز واللوز والفستق ونحوه ما في جوفه، فإن لب

(١) هو الطين الذي أصبح أسود اللون من طول مخالطته للماء.
(٢) متغير الرائحة.
(٣) الحجر: ٢٦.
(٤) المؤمنون: ١٢.
(٥) الأنعام: ٢.
(٦) السجدة: ٧.
(٧) الرحمن: ١٤.

الإنسان عقله، وباللب أو العقل ميز الله الإنسان عن سائر خلقه، حتى الملائكة، فقد علمه الأسماء كلها: أي أنه جعله مستعدا لمعرفة خصائص الأشياء، وهذه المعرفة تساعده على الانتفاع بتلك الأشياء، والاستفادة منها، وهو ما حصل بالفعل، وقد مرت هذه المعرفة بأطوار مختلفة، ووصلت الآن إلى مرحلة متقدمة، فقد استطاع الإنسان أن يكتشف خبايا الأرض، وما زال، وأن يضبط العلاقات بينه وبين ما في هذا الكون من مخلوقات وأشياء، بفضل هذه الجوهرة الثمينة التي أهداها الله للإنسان، والتي جعلته متميزا عن سائر الموجودات، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [1] .

ومن إجلاله للإنسان وتكريمه، تعالى ذكره، أن أمر ملائكته بالسجود لآدم، فخروا لهذا المخلوق الجديد ساجدين، إلا إبليس فإنه امتنع أن يسجد له، وعصى أمر ربه، إذ كيف يسجد لمخلوق من الطين، شاهد بداية خلقه، رأى ربه، وقد مزج « التراب بالماء، فصار صلصالا من حمإ مسنون، فعفن الطين، وانبعثت له رائحة، وكان إبليس يمر عليه فيعجب، أي شيء يصير هذا الطين » [2]

ثم لما أصبح إنسانا سويا رفض أن يسجد له، وقد خلق من هذه التونة، وخلق هو من نار، فما أبعد النار عن الطين اللازب .

وإزاء عصيانه توعده الله بالعذاب والخلود في النار، وأطرده من حضرة قدسه، وطلب من ربه أن يمهله إلى يوم الوقت المعلوم، فاستجاب الله إلى طلبه، ثم أعلن أمام خالقه بكل جرأة وتحد، أنه سيعمل جاهدا على ملاحقة عباده، وإبعادهم عن طاعته بكل الوسائل المتاحة لديه، والعمل على جلبهم إلى صفه، وجرى بينه وبين

(١)البقرة: ٣١ ـ ٣٣.

(٢)أحمد بهجت: أنبياء الله ص ٣٦.

ربه الحوار التالي:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟.
- ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.
- ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾.
- ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.
- ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.
- ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.
- ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

والتفت سبحانه وتعالى إلى آدم وحواء، وكانت قد خلقت من أحد أضلاع آدم، وهو نائم، ودعاهما إلى المقام بجنة الله، وقد وفر لهما ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، ونهاهما عن الاقتراب من شجرة عينها لهما، وكان إبليس قد رأى آدم وحواء يتمتعان بنعيم الجنة، فحز في نفسه أن يكون محروما منها، فقرر أن يعمل على حرمانهما من هذا النعيم الذي لا يبلى، فزين لهما الأكل من تلك الشجرة التي حرمها الله عليهما، وأخذ يغريهما بالإقبال على أكل ثمرة تلك الشجرة، فأقبلا معا على القطف ثم الأكل، وإذا بآدم وزوجته يتفطنان إلى فعلتهما الشنيعة ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2] ولم ينفعهما الاعتراف بالذنب، وطلب العفو، ونزل عليهما الحكم الإلهي العادل كالصاعقة ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٢٤ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[3].

---

(١) الأعراف: ١٢ ـ ١٨.

(٢) الأعراف: ٢٢.

(٣) الأعراف: ٢٥.

وعند خروج آدم وحواء من الجنة يبدأ الطور الثاني من خلق الإنسان.

خلق الإنسان من ماء مهين

وجد آدم نفسه مع حواء وحيدين، فتكونت بينهما ألفة ومحبة، ووجد فيها الأنيس الذي يبعد عنه الغربة والوحشة، وهداهما الله إلى الازدواج، فكان الإنجاب، وكان التكاثر، وكان انتشار بني آدم فوق الأرض، عن طريق هذا الماء المهين: أي المستقذر في رأي الناس، تماما كما خلق آدم من طين أسود متعفن، وإن كان أقل عفونة ونتنا من الوسط الذي خلق فيه ابنيه (قابيل وهابيل) ماء كريه الرائحة، تسبح فيه حيوانات منوية، ثم تلتقي في الرحم ببويضات الأنثى، فتتشكل منها الجنين الذي ينشأ في ظلام دامس، وبالقرب منه أنابيب بعضها لا يخلو من نتونة وقذارة، إنه عالم عجيب تنفر النفس أن تراه فما بالك بالعيش فيه، فلماذا خلق الله الإنسان من هذه المادة العفنة ؟ ولماذا يحضن في هذا الوسط المظلم القذر ؟

لا شك أن الله تعالى أراد أن ينبه الإنسان إلى منزلته وقيمته، فلا يتطاول على خالقه، ولا يتجاوز حدوده، أو يدفعه الغرور فيتكبر على عباد الله، أو ينفخه الشيطان فيمتلئ فخرا وبطرا ورياء، فإذا وصل إلى هذه الحالة كان عليه أن يتذكر معدنه، ويتساءل بينه وبين نفسه مم خلق؟ ويتذكر أكثر أنه يحمل النجاسة بين جنبيه، ويلمسها بيده كل يوم، فيدعو نفسه إن كان عاقلا إلى التواضع، وتجنب التكبر، وإن لم ينتبه إلى وضعه، فالله قد ذكره بأصله، أصلك أيها الإنسان ماء متحثر مستقذر، و ضع مع ماء آخر كريه الرائحة في قرار مكين، لا يخلو فيه العيش، لو كان الجنين مدركا، قال تعالى منبها ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [1].

وسواء انتبه الإنسان أو لم يتنبه إلى وضعه ومنزلته فإنه ضعيف ما في ذلك شك، نعم هو قوي بعقله ومعرفته وعلمه، وحبذا لو سخرت هذه القوة لخير بني

(١) المرسلات : ٢٠ ـ ٢٣.

الإنسان، الإنسان الذي كان من المنتظر أن يأنس لأخيه الإنسان، ويجد فيه المؤنس والمساعد على قضاء العمر الأرضي، ثم المرور إلى الحياة الأخروية، التي ستكون كاملة، بل هي الحياة الحقيقية الدائمة إذ لا موت بعدها، وإذا قوبلت بالحياة الدنيا نجد النقص الواضح في كل مظاهر الحياة، نجد الظلم والغطرسة والحروب وغيرها، والإنسان الظالم لأخيه الإنسان هو نفسه خلقه الله ضعيفا، ومع ذلك يوسوس له الشيطان بأنه قوي وعظيم، وعظمته وقوته لا تبرز إلا في الاعتداء على الغير والتعدي عليه، وإذا علمنا من خلال التاريخ، وعرفنا بالمشاهدة والتجربة أن الحياة الدنيوية كلها نقص فادح، كان علينا أن نتيقن أنه توجد حياة كاملة فيها يتجلى الكمال في كل شيء، وأن هذا الكمال المطلق لا يمكن أن يقع في هذه الحياة الدنيا ما دامت نوازع الشر متحكمة في نفوس البشر، وأنه من المستحيل أن يتبدل الإنسان مهما طال به الزمن، وبما أنه مجبول على الشر فلا بد أن نجزم بوجود حياة أخرى يسود فيها العدل، والعدل الإلهي فقط، وفي هذه الحياة الأخرى يكون الإنصاف الحق، وتعود الحقوق إلى أصحابها، ويعاقب الظالم، ويقتص منه، وتصفو الحياة لبني البشر، فيرددون مع القرآن: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [1].

هكذا كان الطور الثاني من خلق الإنسان، نطفة أو قطرة، وهي التي يسميها القرآن بالسلالة، هذه القطرة انتزعت من باقي المني، فكانت عبارة عن سهم انغرس في البويضة، ومنها بدأ تشكيل الجنين، كان ذلك بعد خلق آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [2] وأصل ذلك كله التراب أو الطين اللازب المتماسك، الذي هو وسط بين السيولة والصلابة، والماء ضروري في خلق الإنسان في الحالتين، فهو آسن ومستقذر في الطورين، ويبقى التراب أو الأرض هي أم الإنسان، فعلى ظهرها يحيا، وفي أعماقها يلحد، ثم على سطحها يبعث من جديد ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ

(١) النحل: ٣٠.

(٢) السجدة: ٨.

وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾[1] .

خلق الإنسان إذن من طين وتراب وماء، ثم من نطفة وقطرة كريهة الرائحة، يتحدث عنها القرآن بكل دقة ويسر، كما لو كنا نشاهدها أمام أعيننا، ونحن نؤمن بما ورد في القرآن عن خلق الإنسان إيمانا جازما، أما بالنسبة لمن لا يؤمن بالقرآن، ولا بالذي أنزل القرآن، والذي أنزل عليه القرآن، فله أن يقول ما يريد في خصوص خلق ﴿ ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ وله أن يكون هذا الخلق قضية شائكة لديه، كما ذكرنا أعلاه.

نظرية داروين

تنفي نظرية داروين أن يكون أصل البشر هو آدم « وإنما تفرع الناس على زعمه من سلالات أخرى، وانحدروا من أصل آخر يختلف عن أصل آدم، إنه يعتقد بأن الإنسان بدأت حياته بجرثومة صغيرة، ظهرت على سطح الماء، ثم تحولت إلى حيوان صغير، ثم تدرج هذا الحيوان فأصبح ضفدعا، فسمكة، فقردا، ثم ترقى هذا القرد، وتمدن فصار إنسانا، فالإنسان في نظره قرد متمدن، وقد استطاع ذلك القرد بعبقريته ونبوغه أن يتطور ويتغير، فيصبح إنسانا ذكيا بعد أن كان قردا غبيا »[2] .

يعني أن أصل الإنسان هو قرد من فصيلة الشمبانزي الشبيه بالإنسان، وليس هو آدم، وقد وقع الرد على هذه النظرية في كثير من المقالات والكتب، وتم دحضها من قبل العلماء في الشرق والغرب .

وليس من غايتنا أن نتوسع في عرض هذه الردود، وإنما هي إشارات سريعة، فقد تجاوز العلم هذه النظرية، وأصبحت في عداد التاريخ، بعد أن أبطلها علماء أفذاذ في الغرب مثل كريس موريسون في كتابه (العلم يدعو للإيمان) و كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) وهو لمجموعة من العلماء المتخصصين في العلوم الطبيعية

(١)طه: ٥٥.

(٢)محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء ص١٢٦ ـ ١٢٧.

« وكلا الكتابين يهدف إلى إثبات وجود المدبر الصانع الحكيم، ويرد على القائلين بأن الطبيعة هي التي أوجدت هذا الكون وهذه الحياة »[1] وقد تبين لبعض العلماء الألمان « إن القرد إنسان متقهقر، وليس الإنسان قردا مرتقيا، ونظريته التي يقول بها عكس نظرية داروين وأتباعه، وقد جعل أدلة داروين وبراهينه أدلة وبراهين على صحة نظريته »[2].

أما الكتاب العرب فقد تصدوا لهذه النظرية، محاولين نسفها وإضعاف أمرها، ومن هؤلاء الكتاب نذكر حليم عطية في كتابه (تصدع مذهب داروين والإثبات العلمي لعقيدة الخلق) وقد جاء في كتابه مايلي: « كيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم، وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والفيل، والدب، والنمر، وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ ولو حدث شيء من التطور والارتقاء ــ حسب ما يدعي داروين ــ للزم أن تتطور القردة الموجودة في زماننا ، وتترقى كما ترقى أسلافها من قبل ، وكما تمدنوا، فأصبحوا بشرا، بعد أن كانوا قردة ؟ وعلى زعم داروين هل يمكن أن يصير البرغوث فيلا، وأن تنقلب النملة نعجة، ويصبح الهر أسدا، بمر القرون، وكر الدهور »[3].

ويذهب عبد الوهاب النجار إلى أن علماء الإسلام « يوجبون ما أوجبه العقل، ويحيلون ما أحاله، ويجيزون ما أجازه، ومن صريح القرآن فيما لا يعارض العقل ولا يصادمه، فإذا كانت عبارة القرآن تخالف مقطوعا به عقلا، وجب تأويل نص القرآن ليطابق العقل، وقد جاء في القرآن بأن الله قد خلق شخصا اسمه آدم وزوجه حواء، وأنهما أصل النوع الإنساني، وأنه خلق آدم من الطين، ونفخ فيه من روحه، وجعله بشرا، فهذا القول عندنا صريح، لا يعدل عنه إلى تأويله، إلا إذا قامت الأدلة التي لا ترد على نظرية داروين، وأن الإنسان ليس أصلا بنفسه، بل جنس أو نوع مشتق من

(١)نفس المرجع ص ١٢٩.

(٢)عبد الوهاب النجار -قصص الأنبياء ص ٢٩.

(٣)الصابوني: مرجع مذكور ص ١٢٨.

غيره، إذا صارت أدلة داروين بديهية، في حكم السماء فوقنا والأرض تحتنا، وجب أن نسلم بها، وأن نلجأ إلى تأويل نصوص القرآن، بما لا يخالف الواقع ، ولكن نظرية داروين لم تبلغ من المتانة هذا الحد الذي يجعلها أمرا قطعيا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه»[1] .

والنظرية في العادة لا تبلغ مستوى الحقيقة العلمية، وتبقى بين أخذ ورد، إلى أن يتجاوزها العلم، وتبقى نظرية داروين محاولة جادة لدى علماء الأنروبولوجيا (علم الإنسان) فقد بين في كتابه أصل الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي، وحفظ السلالات المفضلة في التناحر على البقاء،وأثر العوامل الطبيعية التي يؤدي فعلها إلى التطور ونشوء الأنواع، وحددها في خمسة أنواع هي: « الوراثة والتحول والتناحر والبقاء للأصلح، فالوراثة تحدد المشابهة، فالسنانير لا تلد كلابا، وبالرغم من وجود تشابه بين أفراد كل نوع، إلا أنه لا يوجد تماثل بينها، أي لا تكون نسخة مطابقة لأصولها، هذا وبينما الطبيعة تسرف في الإيجاد (التوالد) فهي أيضا تسرف في الإفناء، ومن هنا ينشأ التناحر على البقاء، والقاعدة هي أن البقاء للأصلح، بمعنى أن الكائنات التي تتزود من بقائها بقوة أكبر، أو حيلة أذكى، أو تكون أكثر قدرة على مقاومة أفاعيل الطبيعة، تكون أكثر قابلية للبقاء، وإعقاب نسل فيها صفاتها التي مكنت لها في الحياة »[2] « وعلى حد تعبير داروين، نفسه فإن هناك عظمة وجلالا في عملية التطور، والانتخاب الطبيعي، فمن تلك البدايات المتناهية في البساطة تطورت، وما زالت تتطور أنواع لا حصر لها غاية في الجمال والإبداع »[3] .

ويبدو أن داروين أغرته فكرة التطور، وأصل الأنواع في عالم الحيوان، خاصة، وقد استقبلها العلماء بالترحاب، فأراد أن يطبقها على الإنسان، ليصل في آخر الأمر إلى « أن الإنسان قد نشأ من صورة دنيا، هي أقرب إلى القردة العليا، منها إلى أية

(١)النجار: المرجع المذكور أعلاه ص ٢٨.

(٢)حسن فهيم: قصة الأنروبولوجيا ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

(٣)نفس المرجع ص ١٢٣.

صورة أخرى من صورة الحيوانات الأخرى، وليس معنى هذا أن الإنسان ينحدر أصلا من القردة العليا، ولكنه يشترك معها في أسلاف بعيدة تنتمي إلى رتبة الرئيسيات »[1].

بمعنى أن الإنسان لم يكن من نسل آدم، وإنما تكون نتيجة تفاعلات كيميائية، ثم ظهرت جرثومة صغيرة فوق سطح الماء، ومن هذه الجرثومة بدأ الإنسان، ويشترك الشمبانزي في هذه البداية «وهكذا جعل داروين نسبنا متصلا بالحيوان، وعشيرتنا منحدرة من الضفادع والفئران، وجدنا هو الشمبانزي، لأنه أقرب القردة شبها بالإنسان »[2].

وواضح أن داروين ينفي وجود الخالق، جل وعلا، ويعتقد أن الطبيعة هي التي خلقت هذا العالم، وخلقت بالتالي الإنسان، هذا الذي خلقه الله وكرمه، بأن رفعه على الملائكة المقربين، وقال عنه القرآن ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3] وقال أيضا: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[4].

ويعني بالتقويم: اعتدال القامة، وجمال الصورة، والتنسيق بين أعضاء الجسم، ودقة الصنع، واستواء الخلقة، وقد فضله على الحيوانات، ومنها القرد، بالعقل والإرادة، والتعبير بالكلام، هذا بالنسبة للجانب التاريخي لخلق الإنسان، فهل تغير خلق الإنسان عما كان عليه يوم صور الله قابيل وهابيل في بطن حواء ؟

خلق الإنسان في الأرحام وأطواره

لقد استمر خلق الإنسان، وبقي على حاله، كما كان في عهد آدم وحواء، لم يتغير شيء البتة، ولن يتغير منه شيء في المستقبل، فتلك سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا

(١)نفس المرجع والصفحة.

(٢)الصابوني: مرجع سبق ذكره ص ١٢٧.

(٣)التين: ٤.

(٤)التغابن: ٣.

أو تطورا وتحويلا ، فقد شاءت حكمة الله أن يخلق آدم من طين، ثم ابتداء من آدم وحواء يصبح الخلق عن طريق النطفة، وهي عبارة عن حيوان منوي كان كامنا في خصية الرجل، يلتقي بنطفة أو بويضة كانت كامنة في مبيض المرأة في الرحم، أو القرار المكين، كما يسميه القرآن، لأنه مستقر حصين محاط بصندوق من عظام الظهر والجنين وغيرهما، وباتحاد النطفتين تتكون خلية واحدة مجموعهما معا (٤٨) كروموزوم، أي أن النطفة الذكورية (٢٤) كروموزوم والنطفة الأنثوية (٢٤) كروموزوم، ثم تتحول الخلية إلى علقة، وهي القطعة المتماسكة من الدم، تتعلق بجدار الرحم، ثم تصبح قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ، وبعدها تكون العظام التي يكسوها جلت حكمته باللحم قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (١) .

وفي معرض الرد على المكذبين بالبعث، يذكر القرآن بكيفية خلقهم أولا، وإعادتهم يوم القيامة، كما كانوا في الدنيا،وهو أهون عليه وأسهل، من ذلك الخلق الذي وقع في بطون أمهاتهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ (٢) .

« تأمل كيف تتحول تلك النطفة المنوية بالغذاء السابح في دماء الأم إلى إنسان كامل التصوير والتكوين والتركيب، فجزء من ذلك الغذاء يكون يدا، وجزء مماثل يكون اليد الأخرى، وجزء يكون القدم، وجزء يكون القدم المساوية الأخرى، وجزء يكون العين، وجزء يكون العين المساوية الأخرى، وجزء يكون الرئة، وجزء

(١)المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

(٢)الحج:٥.

يكون الرئة المماثلة الأخرى، وجزء يكون القلب، وجزء يكون الجمجمة، وجزء يكون الأمعاء، وجزء يكون المعدة، وجزء يكون الكبد، وجزء يكون العظام، وجزء يكون اللحم، وجزء يكون الجلد وهكذا»[1].

هذه المعلومات الدقيقة عن مراحل تكوين الجنين التي توصل إليها العلم في العصر الحديث من أين أخذها محمد بن عبد الله ؟ يستحيل على العقل أن يصدق أن محمدا توصل إليها لفرط ذكائه أو عبقريته، ولكن العقل الحصيف يذهب رأسا إلى أن هذه الدقة في الحديث عن مراحل خلق الجنين لا تكون إلا من الله الذي ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2] وأنه أوحى إلى الرسول بكل هذه المعلومات في القرآن الكريم ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3].

ثم يهبط هذا المولود إلى عالم الناس، فيكون طفلا، قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾[4] والطفل أنثى أو ذكر، هو الولد حتى البلوغ، والطفل عادة في هذه السن لا يميز لصغره بين عورات النساء وغيرهن، فإذا بلغ سن الرشد كان على أبويه أن يعلماه الاستئذان عند الدخول إلى الأماكن والأوقات التي يتخفف فيها الرجال والنساء من الثياب، ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[5] وهذه أخلاق الإسلام، غرس الحياء في نفس الطفل منذ نعومة أظفاره.

مراحل عمر الإنسان بعد خروجه من بطن أمه لم يهملها القرآن، فبعد مرحلة الطفولة ذكر مرحلة الشباب، وسماها بالأشد، ثم ذكر سن الشيخوخة للنساء

(١)عبد المجيد الزنداني(بالاشتراك) : كتاب توحيد الخالق ج ٢ ص ١٦٩.
(٢)طه : ٥٠.
(٣)الفرقان: ٦.
(٤)الحج: ٥.
(٥)النور:٥٩.

والرجال ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾[1] .

وقال أيضا ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٖ ضَعْفٗا وَشَيْبَةٗ﴾[2] .

وذكر عجوز لوط التي كانت في الغابرين الهالكين، يوم دمر الله مساكن قوم لوط، وقضى عليهم قضاء مبرما، جزاء اقترافهم الفحشاء وإتيان المنكر، ويقابلها سارة زوجة إبراهيم التي تعجبت من إنجابها البنين وهي في سن التسعين، وزوجها في سن المائة ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٞ﴾[3]

هذا الإنسان الذي سواه الله وأحسن تصويره، وأبدع في تكوينه يمنا في المرحلة الأولى أن نلم بأعضاء جسمه المذكورة في القرآن، ونقف عند بعض الأعضاء أو الحواس الهامة في هذا الجسم، بادئين بالرأس حتى القدمين، مع العلم أننا لا نتناول هذه الأعضاء، كما تناولتها العلوم الطبيعية، إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وإنما هو عرض يهتم بالجانب اللغوي أولا، ثم الناحية العلمية إن أمكن، لنلمس مدى قدرة الله الفائقة على خلق هذا الكائن العجيب، الذي كان من الممكن أن يعبد الله عبادة خالصة ويشكره على نعمه التي لا تحصى ولا تعد، ولكنه يتحول إلى خصم لدود، فينكر وجود الله، ويغتر بعقله، فيسمح لنفسه بالتربع على عرش الكون، ثم نتعرض في مرحلة موالية إلى أبعاد أخرى في جسم الإنسان، لا ترى ولا تلمس، وهي عصية على الفهم، رغم أنها من مكونات جسم الإنسان.

وقبل أن نمر إلى الرأس، نشير إلى أن القرآن ذكر الإطار، أو الهيكل العظمي، الذي ستحشى فيه هذه الأعضاء أو الحواس، نعني بذلك الجسد الذي ذكره القرآن مرتين في صيغة المفرد، الأولى هي قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدٗا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾[4] يعني أن جميع الأنبياء لم يكونوا (مجرد جسد يعيش بلا طعام

(١)غافر: ٦٧.

(٢)الروم: ٥٤.

(٣)هود: ٧٢.

(٤)الأنبياء: ٨.